مدخل إلى العلوم الإسلامية

الحكمة العملية

الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري

دار الولاء
بيروت - لبنان

الحكمة العملية

دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع دكاش - سنتر فضل الله
تلفاكس: 545133 1 00961 - 689496 3 00961 - ص.ب. 327/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

الكتاب: الحكمة العملية

الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري

ترجمة: حسن علي الهاشمي

مراجعة وإعداد الشيخ حسين بلوط

الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

مدخل إلى العلوم الإسلامية

الحكمة العملية

الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري

ترجمة: حسن علي الهاشمي

راجعه وأعدّ أسئلته الشيخ حسين بلوط

دار الولاء

بيروت - لبنان

تمهيد

ما هو المراد من العلوم الإسلامية؟

يجدر بنا في هذا الدرس أن نتحدّث قليلاً عن كلمة «العلوم الإسلامية» وضع لها تعريفاً جلياً؛ ليتضح مرادنا من العلوم الإسلامية، وماهية الكلّيات التي نحاول معرفتها في هذه الدروس.

إنّ العلوم الإسلامية، التي هي موضوع بحثنا، يمكن تعريفها على أنحاء عدّة، وتبعاً لاختلاف التعاريف تختلف المواضيع:

1- العلوم التي تدور موضوعاتها أو مسائلها حول أُصول الإسلام وفروعه، أو التي يمكن من خلالها إثبات أُصول الإسلام وفروعه، وهي: القرآن والسنّة، من قبيل: علم القراءة، علم التفسير، علم الحديث، علم الكلام النقلي[1]، علم الفقه، علم الأخلاق النقلي[2].

2- العلوم المذكورة آنفاً، بالإضافة إلى العلوم المُمهِّدة لها، والعلوم المُمهِّدة من قبيل: الأدب العربي، من الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان والبديع وغيرها، ومن قبيل: الكلام العقلي، والأخلاق العقلية، والحكمة الإلهية، والمنطق، وأُصول الفقه، والرجال، والدراية.

3- العلوم التي تعدُّ ـ بنحو من الأنحاء ـ جزءاً من الواجبات الإسلامية، وهي التي يجب على المسلمين تحصيلها، ولو على نحو

١. سيتضح فيما بعد أن علم الكلام على قسمين: عقلي ونقلي، وسيتضح الفرق بينهما.

٢. الأخلاق أيضاً على قسمين كعلم الكلام: عقلية ونقلية، وسنتحدث فيما بعد عن ذلك أيضاً.

الواجب الكفائي، والتي يشملها الحديث النبويّ المعروف: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم».

إن العلوم التي تعتبر موضوعاتها ومسائلها من الأصول أو الفروع الإسلامية أو التي يستند إليها في إثبات تلك الأصول والفروع، من الواجب تحصيلها؛ لأنّ الإحاطة بأصول الدين الإسلامي من الواجبات العينية على كلّ مسلم، والإحاطة بفروعها واجب كفائي، كما تجب دراسة القرآن والسنّة أيضاً؛ إذ لا يتيسر من دونهما معرفة أصول الإسلام وفروعه.

وهكذا تجب دراسة العلوم المُمهِّدة لتحصيل هذه العلوم من باب (وجوب مقدمة الواجب)، أي: ينبغي أن يكون هناك دائماً أفراد ملمّون بهذه العلوم بالمقدار الكافي على الأقل. بل ينبغي أن يكون هناك دائماً مَنْ يساهم في تطوير العلوم الأساسية والتمهيدية، ويعمل على إثرائها وتنميتها باستمرار.

وقد سعى العلماء المسلمون طوال القرون الأربعة عشر إلى توسيع رقعة العلوم المذكورة، وقد حققوا في هذا الصدد نجاحات ملحوظة، وستطّلعون تدريجياً على نشوء هذه العلوم ونموّها وتحوّلها وتكاملها.

إنّ العلوم التي هي باب الفريضة والتي يجب على المسلمين تحصيلها غير منحصرة في العلوم المتقدمة، فكل علم توقفت تلبية الحاجات الضرورية للمجتمع الإسلامي على معرفته والتخصص والاجتهاد فيه، وجب على المسلمين تحصيله من باب المقدمة التهيؤيّة.

ولكي نوضح أن الإسلام دين جامع وشامل، وأنه لم يكتف بسلسلة

من المواعظ الأخلاقية والفردية فقط، وأنه دين يعمل على صيانة المجتمع، نقول: إنّ الإسلام عمد إلى كلّ ما يحتاج إليه المجتمع فأوجبه على الكفاية، فإذا كان المجتمع بحاجة إلى طبيب على سبيل المثال، يغدو الطبّ واجباً كفائياً، أي: يجب توفير الأطباء بالمقدار الكافي، وإذا لم يكن هناك أطباء بالمقدار الكافي وجب على الجميع أن يُمهّدوا الأرضية بغية توفير الأطباء، ورفع هذه الحاجة، وبما أن الطبّ يتوقف على تحصيل علوم الطب يكون تحصيلها حتماً من الواجبات الكفائية، وهكذا الأمر في التعليم، والسياسة، والتجارة، وأنواع الفنون والصناعات الأُخرى.

وفي الموارد التي يتوقف فيها حفظ المجتمع الإسلامي وكيانه على تحصيل العلوم والصناعات بأرفع مستوى ممكن يجب تحصيل تلك العلوم بذلك المقدار، ومن هنا يعتبر الإسلام جميع العلوم الضرورية للمجتمع الإسلامي فريضة، وعليه سوف تشمل العلوم الإسلامية ـ بحسب هذا التعريف الثالث ـ الكثير من العلوم الطبيعية والرياضية «التي يحتاج إليها المجتمع الإسلامي».

4 ـ العلوم التي تكاملت في الحواضر العلمية الإسلامية، أعمّ من التي تعدّ في نظر الإسلام واجبة وضرورية، وأعمّ من التي تعدّ في نظره محظورة إلاّ أنّها على كلّ حال شقّت طريقها في المجتمع الإسلامي، من قبيل: علم التنجيم الأحكامي «لا علم التنجيم الرياضي»، فإننا نعلم بإباحة علم التنجيم، كونه جزءاً من العلوم الإسلامية المباحة، فيما إذا ارتبط بالمعادلات الرياضية التي تدرس أحوال الكون، وتقوم ببيان سلسلة من التنبؤات القائمة على الأُسس الرياضية كالخسوف

والكسوف، وأمّا الخارج منها عن حدود المعادلات الرياضية ـ المتعلق ببيان سلسلة من الروابط الخفيّة بين الحوادث السماوية والوقائع الأرضية، منتهياً إلى سلسلة من التكهنات بشأن الحوادث الأرضية ـ فهو حرام في نظر الإسلام، ولكن برغم ذلك تجد كلا هذين النوعين من علم التنجيم موجوداً في مهد الثقافة والحضارة الإسلامية[3].

وبعد أن عرضنا تعاريف مختلفة لكلمة «العلوم الإسلامية»، واتضح أن هذه الكلمة تستعمل في الموارد المختلفة في معانٍ متعددة، وأن بعض تلك المعاني أوسع من بعض أو أضيق، نشير إلى أن المراد من العلوم الإسلامية التي نريد أن نتحدث عنها بشكل كلي هو ما ذكرناه في التعريف الثالث، أي: العلوم التي يعدّها الإسلام ـ بنحو من الأنحاء ـ فريضة ذات تاريخ عريق في الثقافة والحضارة الإسلامية، والتي تحظى باحترام المسلمين وتقديرهم بوصفها أداة لرفع حاجة، أو وسيلة إلى إنجاز فريضة من الفرائض.

وفي هذا الدرس ينبغي للطلاب الأعزاء أن يدركوا أن الثقافة الإسلامية تشكل ثقافة خاصة بين الثقافات العالمية، ولها روحها الخاصة بها، وسلسلة من المميزات الخاصة، ومن أجل معرفة ثقافة من الثقافات، أنها ذات أصالة مستقلة، تتمتع بحياة وروح خاصة، أو أنها مجرد تقليد للثقافات الأخرى ـ وربما كانت مجرد استمرار للثقافات السابقة ـ ينبغي معرفة بواعث تلك الثقافة وهدفها وحركتها وطريقة

٣. للاطلاع على العلوم التي تكاملت أو دخلت في الثقافة الإسلامية يراجع كتاب: (كارنامه إسلام)، لمؤلفه الدكتور: عبد الحسين زرّين كوب.

نموّها، وكذا سماتها البارزة وإخضاعها للفحص الدقيق، فإذا تمتعت ثقافة ما ببواعث خاصة وكان لها هدفها وحركتها الخاصة بها، وكانت طريقة حركتها مغايرة لطريقة حركة سائر الثقافات، وكان لها سماتها البارزة، عدّ ذلك دليلاً على أصالة تلك الثقافة واستقلالها.

وبديهي أن إثبات أصالة ثقافة وحضارة ما لا يعني بالضرورة أنها لم تستفد من الثقافات والحضارات الأخرى، لأن هذا مستحيل؛ إذ ما من ثقافة في العالم إلاّ استفادت من الثقافات والحضارات الأخرى، وإنما الكلام في كيفية الاستفادة والانتفاع.

فأحد أنواع الانتفاع أن تقوم ثقافة باستيراد ثقافة أو حضارة أخرى بلا أدنى تصرف فيها، والنوع الآخر أن تقوم الثقافة بعملية استيعاب الثقافة والحضارة الأخرى، كما تصنع الخليّة الحيّة في اجتذاب المواد وهضمها وتحويلها إلى موجودات وكائنات جديدة.

والثقافة الإسلامية من النوع الثاني، فقد نمت كالخليّة الحيّة، إذ اجتذبت الثقافات الأخرى من اليونانية والهندية والإيرانية وغيرها وحوّلتها إلى كائن جديد له سماته الخاصة. وقد اعترف الباحثون في تاريخ الثقافة والحضارة بأن الحضارة الإسلامية من أكبر الحضارات والثقافات البشرية.

أين تكون تكوّنت هذه الخليّة الحيوية الثقافية، وعلى يد من؟ ومن أي نقطة بدأ تكاملها؟

إنّ هذه الخليّة ـ كسائر الخلايا التي تكون صغيرة وغير محسوسة في بدايتها ـ ظهرت في المدينة المنوّرة على يد الرسول الأكرم (صلّى الله

عليه وآله وسلم)، فبدأ النوع الأوّل من العلوم الإسلامية أعماله..

ولمزيد من الاطلاع ينبغي الرجوع إلى الكتب الخاصة[4].

وينبغي التذكير بأن العلوم الإسلامية تنقسم إلى قسمين: العلوم العقلية، والعلوم النقلية.

٤. راجع: "كارنامه إسلام"، تأليف: الدكتور زرّين كوب، و"تاريخ التمدن الإسلامي"، لمؤلفه: جرجي زيدان، ج3، و"خدمات متقابل إسلام وإيران"، بقلم المؤلف، القسم الثالث.

الدرس 1\2

الحكمة العملية

لقد قسمت الحكمة أو الفلسفة منذ القدم إلى قسمين هما: الحكمة النظرية والحكمة العملية.

وقد يتصور للوهلة الأولى أن الحكمة النظرية عبارة عن الحكمة التي ينبغي أن تعلم فلا تدخل في المجال العلمي، من قبيل العلم بأحوال النجوم التي تبعد عنا ملايين السنوات الضوئية، وان الحكمة العلمية عبارة عن معرفة الأمور التي لها مساس مباشر بالعمل كالطب والحساب والهندسة، إلا أن هذا تصور باطل: فإن معيار الحكمة النظرية والحكمة العملية شيء آخر، وربما كان ابن سينا أفضل من بين الفرق بين هاتين الحكمتين وهو ما ستجده في قسم المنطق والإلهيات من كتاب (الشفاء) وكذلك في كتاب (المباحثات).

إلا أن الشيء الذي يمكننا أن نذكر هنا كمعيار للحكمة النظرية والحكمة العلمية هو: أن الحكمة النظرية عبارة عن العالم بأحوال الأشياء كما هي كائنة أو ستكون، وأما لحكمة العملية فهي عبارة عن العلم الذي يرصد أفعال الإنسان[1] (الاختيارية) وما ينبغي منها أو لا ينبغي[2].

١ وطبعاً هناك بحث آخر حول النظام الأحسن مفاده: هل الموجود حالياً، قائم على احسن وافضل واكمل ما يمكن له أن يكون أو لا؟
إلا أن هذا البحث بنفسه من الحكمة النظرية دون العملية.

٢ بحثت المقالة السادسة من أصول الفلسفة في (الواجبات) نفسها دون أن تبحث في كيفية ما ينبغي وما هو الأفضل والأكمل من الأفعال.

وخلاصة القول: أن الحكمة النظرة تتحدث عن (الوجود) وما هو كائن، بينما تتحدث الحكمة الحكمية عما يجب وما ينبغي.

كما أن مسائل الحكمة النظرية من نوع الجمل الخبرية، وأما مسائل الحكمة العملية فيه من نوع الجمل الإنشائية.

وإن الحكمة العملية عبارة عن العلم بتكاليف الإنسان ووظائفه، بمعنى أن هناك مجموعة من التكاليف التي يفرضها على الإنسان عقله المحض بمعزل عن القانون، سواء أكان ألهيا أم وضعياً، فالذين يعتقدون بالحكمة العملية يرون أن لإنسان مجموعة من التكاليف والوظائف تمثل الحكمة العملية التي لا بد للعقل أن يكتشفها ويعثر عليها[3].

وتنقسم الحكمة النظرية إلى: الإلهيات والرياضيات والطبيعيات وبذلك تكون رقتها واسعة جداً وتدخل فيها أكثر العلوم البشرية، في حين تنقسم الحكمة العملية إلى الأخلاق وتدبير المنزل وسياسة المجتمع، فهي كما ترى محدودة بالعلوم الإنسانية بل بجزء منها.

وبذلك تكون الحكمة العملية محدودة من عدة جهات:

فأولاً: هي محدودة بالإنسان فلا تشمل غيره.

وثانياً: إنها تتعلق بالأفعال الاختيارية مما يدخل في مجال الطب والفلسفة وعلم النفس.

وثالثاً: إنها تتعلق بما ينبغي من أفعاله الاختيارية وما لا ينبغي أن تكون، وبذلك فأنها ترتبط بالجانب العقلي من القوة الإدراكية وبالجانب الإرادي من القوة التنفيذية، دون الخيال من القوة الإدراكية،

٣ بل إن العقل هو القوة الحاكمة دون غيره.

ودون الرغبة من القوة التنفيذية، ومن هنا كان البحث حول اختيار الإنسان والمقدمات التي تؤدي إلى صدور الفعل الاختياري من الإنسان، والبحث حول ماهية الاختيار وكون الإنسان مقهوراً أو مختاراً، خارجاً عن الحكمة العملية ومرتبطاً بعلم النفس أو الفلسفة.

ورابعاً: أن الحكمة العلمية لا تبحث في جميع ما ينبغي من الأمور، وإنما تبحث منها خصوص ما كان من الأمور النوعية والكلية والمطلقة والإنسانية، دون الأمور الفردية والنسبية.

والآن لا بد لنا من تقديم توضيح بشأن القسم الأخير فنقول: أن كل فعل اختياري للإنسان بحاجة إلى سلسلة من المقدمات: فأولاً: لا بد من تصوره، وثانياً: أن تحل له رغبة تدعوه إلى فعله أو خوف يصده عنه. وثالثاً: أن يصدر حكماً وتصديقاً بضرورته وفائدته، ورابعاً: أن يصدر حكماً إنشائياً بوجوب ذلك الفعل أو عدم وجوبه، وخامساً: أن حصل له إرادة لكل من الفعل أو الترك.

ولا إشكال في هذه المقدمات، إلا ما كان بشأن المقدميتن الثالثة والرابعة، أي الحكم التصديقي والحكم الإنشائي، فهل يصدر الذهن بشأن كل فعل حكمين: أحدهما من النوع التصديقي والآخر من النوع الإنشائي، أو ليس هناك سوى حكم واحدا؟ وإذا كان هناك حكم واحد فقط، فهل هو من النوع التصديقي أو الإنشائي؟

والصحيح هو لأول: أي هناك حكمان للذهن، وان الحكم الإنشائي هو القدر المسلم: إذ لا بد لكل شخص من أن يتصور الشيء الذي يريد فعله وان يحكم بوجوبه أو رجحانه في الأقل، وذلك لمكان الغاية والهدف

الذي يتوخاه الإنسان من فعله، بمعنى أن كل فعل اختياري إنما يأتي به الإنسان بغية الوصول إلى غاية وهدف، ومعنى ذلك: انه لو لا الغاية والهدف لما كان هناك حكم بضرورة الفعل.

وفي الحقيقة كما أن الإنسان حينما يحث شخصاً على فعل أو يزجه عنه إنما يتوسل إلى ذلك عن طريق الأمر أو النهي، فيكون له هدف من أمره ونهيه، وان الإطاعة والامتثال وسيلة إلى مقصده الخاص، فكذلك لا طريق إلى وصول الإنسان لهدفه إلا من خلال وجوب فعل الشيء أو عدم وجوبه، فيجعل ذلك وسيلة إلى تحركه نحو ذلك الهدف.

وعليه فإن الحكم بوجوب الفعل أو عدم وجوبه موجود في جميع الأحكام الاختيارية، ولا يختص ذلك بفعل خاص، وان كل حكم من هذا القبيل يوجب هدفاً خاصاً وعليه فان الذين يحملون أهدافاً متضادة يصدرون أحكاماً متضادة بشأن ضرورة فعل ما يوصلهم إلى تلك الأهداف، فمثلاً أن لكل من المتخاصمين أو المتنافسين هدفاً مغايراً لهدف صاحبه، مما يستتبع اختلاف حكم كل منهما بوجوب فعل ما يوصل إلى ذلك الهدف، إذ كلاهما يهدف إلى الانتصار على خصمه.

وبذلك تكون جميع الأحكام التي توجب فعل شيء أو لا توجبه جزئية وفرجية ونسبية ومؤقتة، ولأجل اختلاف الأنظار يحصل تضاد وتزاحم بين الأحكام.

فمثلاً: إذا تصارع شخصان فسوف يحكم ثالث بان المتصارع الأول يرى وجوب أداء حركة معينة لينتصر على منافسه، في حين أن المتصارع الثاني لا يسمح له بأداء تلك الحركة، ويرى وجوب العمل بشكل مغاير

يحسم النتيجة لصالحه، وهذا النوع من الأحكام الفردية والجزئية والنسبية خارج عن نطاق الحكمة العملية: إذا أن الحكمة العملية تبحث عما إذا كان للذهن البشري نوع آخر من الأحكام تتفق فيه الآراء والأنظار مما يجعلها أحكاماً كلية لا جزئية، ومطلقة لا نسبية، ودائمة غير مؤقتة، فهل هناك مثل هذه الأحكام أو لا؟

وهذا من قبيل الأمور التي تحظى بقيمة أخلاقية أو أسرية أو اجتماعية، فهل هناك في وجدان الإنسان مثل هذه الأحكام المطلقة والكلية التي تحكم بوجوب الصدق والإحسان وضرورة تقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة، ومكافأة الإحسان بالإحسان، والمطالبة بالحرية والعدالة، ومكافحة الظلم ومقارعة الظالم، وضرورة أن يكون الإنسان شجاعاً وكريماً ومؤثراً على نفسه، وان يكون تقياً وعفيفاً وأمثال ذلك؟ فلو كانت هناك مثل هذه الأحكام لدى الإنسان لكانت عامة ومطلقة ودائمة وليس خاصة ونسبية ومؤقتة، وأما إذا أنكرنا وجود مثل هذه الأحكام العامة والمطلقة، فإننا في الحقيقة سوف ننكر لحكمة العملية (العقلية والاستدلالية) في قال الحكمة النظرية (العقلية والاستدلالية)، وعنها لا بد من الرجوع إلى الأخلاق والتجربة، إلا أننا إذا سلمنا ان هذه الأحكام عامة ومشتركة ومطلقة فسوف يكون للحكمة العملية معنى ومفهوم، أي كما للحكمة النظرية مجموعة من الأسس الأولية التي تشكل مبادئ تفكيرنا وآرائنا، فإن هناك في العلوم العملية مجموعة من الأسس الأولية الكلية والمطلقة التي إذا أنكرناها لما كان هناك معنى للكلام حول القيم الأخلاقية والإنسانية، وطبعاً

سنبحث هذا المطلب فيما بعد، وإذا وصلنا إلى هذه المرحلة سنضطر إلى تحليل أسس الحكمة العلمية، وسنواجه سؤالاً آخر مفاده: ما هي مقومات الأحكام العامة والمطلقة؟ وبرغم كون البحث دقيقاً وعاماً إلا إننا سنتعرض إلى بيانه من الآن حتى يتعرف عليه الطلاب، وذلك نظراً إلى أهميته الكبيرة، وهناك في البين ثلاث نظريات:

1 - أن هذا النوع من الأحكام - خلافاً للأحكام الجزئية والنسبية التي تكون مقدمة لفعل شيء هو في نفسه مقدمة للوصول إلى الهدف - إنما يكون في مورد الأمور التي هي غاية وهدف في نفسها، فمثلاً يجب أن يكون الإنسان صادقا، لماذا؟ لحسن الصدق في ذاته، أي أن الصدق بنفسه حقيقة كمالية تنسجم مع ذات الإنسان وفطرته، وبعبارة أخرى: إن الصدق إنما يجب لكماله وفضله ذاتاً، وبعبارة ثالثة: أن في ذات الصدق حسن معقول وجمال ذاتي، ون حسن الصدق في ذاته خير وكمال نفسي للإنسان، وان الكذب مغاير لفطرة الإنسان، وبتعبير رابع: أن الصدق غاية جميع أفراد الإنسان.

فالإنسان يريد الصدق لذاته لا لشيء آخر، إلا أن الكمال الذاتي الفردي ينتهي لصلاح المجتمع الإنساني، فإن مصلحة المجتمع تكمن في وصول أفراده إلى كمالهم اللائق بهم، إن فما هو خير وكمال للفرد يكون مفيداً للمجتمع ولغيره من الأفراد، فينتهي كمال الفرد لصالح المجتمع.

2 - أن الصدق والصلاح والعدالة وأمثالها وان كانت عامة ومطلقة، إلا إنها لا تستهدف لذاتها، فإن ما هو الهدف في مثل هذه الأمور هو إيصال الخير للآخرين سواء أعلمنا ذلك أم لم نعلمه، فإن الإنسان

خلق اجتماعياً دون إرادة أو علم منه، ومعنى ذلك أن للإنسان هدفين، وانه يميل ذاتاً إلى نوعين من الأفعال، ويلتذ بفعل شيئين، الأول: الأعمال التي توصله إلى أهدافه ومصالحه الفردية، والثاني: الأعمال التي يراد منها إيصال الآخرين إلى مقاصدهم وأهدافهم ومصالحهم.

إذن فالإنسان بحسب فطرته وتركيبته الذهنية وعواطفه وميوله ومشاعره، يسعى إلى الوصول إلى مصالحه ومصالح الآخرين، وان ما يسمى بـ(الحكمة العملية) - التي تقوم على مجموعة من الواجبات للوصول إلى مجموعة من المقاصد والأهداف - لا يختلف عن سائر الواجبات والمحظورات، وإنما الفرق يكمن في الأهداف والمقاصد الإنسانية، فبعض الأهداف والمقاصد يعد كمالاً للفرد نفسه، في حين أن بعضها الآخر يعد كمالاً لغيره من الأفراد[4]. فحينما يكون الأمر متعلقاً بالآخرين تكون الواجبات والمحظورات عامة ومطلقة وداخلة في الحكمة العملية، فمثلاً حينما يسعى الفرد إلى إشباع بطنه يكون سعيه هذا فردياً ونسبياً وحيوانياً، ولا تكون له قيمة، إلا انه إذا سعى إلى إشباع الآخرين يكون سعيه كلياً ومتعالياً وإنسانياً، وتكون له قيمة عالية، مع أن الغاية في كلتا الحالتين واحدة وهي إشباع البطن الذي هو في حد ذاته من الأمور العاجية، إذن فالأعمال إنما تكتسب قداستها وتعاليها وقيمتها من جهة كونها كلية وعامة ومشتركة.

---

٤ وبعبارة أفضل: إن متعلق الواجبات الأخلاقية يختلف في حدِّ ذاته وفي نفسه عن متعلق سائر الواجبات، فمن هذه الرؤية لا يوجد فرق بين الأكل والخدمة، وإنما اختلاف هذه الأفعال يكون إضافياً وفي وجودها لغيرها فما دامت هي متعلقة بذات الإنسان والفرد فهي عادية، وإذا تعلقت بالآخرين تكون عالية وسامية، فمن وجهة نظر فإن ملاك كون الشيء أخلاقياً أن يكون للآخرين، ومن وجهة نظر اخرى: أن يكون كلياً وأن يكون للناس جميعاً.

3 - أن الأمـور الأخلاقية - خلافاً للنظرية الأولى - لا تستهدف لذاتها، وإنمـا الهدف منها أيضاً المجتمع - وفي ضمنه الفرد - إلى الكمال، بمعنى أن المجتمع لا يستهدف بوصفه أمـراً أجنبياً وخارجاً عن الذات، بل يستهدف بوصفه حاملاً للأنا التي تفوق الأنا الفردية، وأساساً - خلافاً للنظرية الثاني التي تصورت أن ما تستهدفه القيم الأخلاقية هم الآخرين بوصفهم أموراً خارجة عن الذات — لا يمكن للإنسان أو لأي موجود آخر أن يتحرك نحو غاية وهدف لا يمت له بصلة، فإن لكل حركة يقوم بها الفرد غاية تنتهي لصلاحه، وكل حركة تبدأ من الأنا الناقصة إلى الأنا الكاملة، ومن القوة إلى الفعلية، وان القوة والفعل مراتب لحقيقة واحدة، فالمجتمع إنما يستهدف بوصفه أمراً داخلاً في الذات لا خارجاً عنها إنما يستهدف بوصفه أمراً داخلاً في الذات لا خارجاً عنها.

توضيح ذلك: أن المجتمع حقيقة واقعية، وليس أمراً اعتبارياً، فإن تركيب المجتمع من أفراد ليس تركيباً اعتبارياً، وإنما هو تركيب حقيقي، بمعنى أن أفراد المجتمع وان كانوا منفصلين من الناحية الجسدية عن بعضهم وليست بينهم وحدة واقعية، إلا إنهم من الناحية الروحية والثقافية تحكمهم وحدة واقعية بفعل مجموعة أشخاص، إلا إنهم متحدين شخصية، وإنهم متكثرون (جسماً) ومتحدون (وجداناً). وبعابرة ثالثة: إن (وجدان الفرد) في المجتمع يشكل جزءاً حقيقياً في (وجدان المجتمع).

وفي الحقيقة أن لكل فرد نوعين من (الأنا) والوجدان والشخصية

أحدهما: (الأنا الفردية) التي هي حصيلة واقعه الحيواني، والأخر: (الأنا الاجتماعية) التي هي حصيلة واقعه الإنساني والاجتماعي، والإنسان في النوع الأول يرى نفسه فرداً وفي النوع الثاني يرى المجتمع ككل، ويرى نفسه في ضمن المجتمع، وعندما تحصل للإنسان مثل هذه الرؤية فسيكون له هدف قهراً وسيرتب في ذهنه مجموعة من الواجبات والمحظورات للوصول إلى ذلك الهدف.

وان ما يسمى بـ (الحكمة العلمية) والذي تكون له جهة كلية واشتراكية، ويكون دائماً ومطلقاً هي تلك الرؤى التي تخلقها (الأنا الاجتماعية) لدى الإنسان للوصل إلى أهدافه وكمالاته.

والملاك في قيمة هذه الرؤى وقداستها بالقياس إلى الرؤى الفردية نابع من (الكل) لا لكونها من (الكلي)، وقد أتضح الفرق بين الكل والكلي في علم المنطق.

أما الفرضية الأولى من هذه الفرضيات الثلاث فتقوم على أساس اختلاف شخصية الإنسان في الرتبة، وان للإنسان حقيقة ذات مرتبتين، الأولى: ترابية وحيوانية ودانية، والأخرى: ملكوتية وعلوية، وان مرتبته الترابية هي وسيلته الوحيدة لبلوغ مرتبته الملكوتية، فإذا كانت أعماله محدودة بمرتبته الترابية كانت عادية ودانية، وإذا كانت نابعة من دوافعه المعنوية والملكوتية والإلهية فسوف تحظى بقداسة عالية، وبعبارة أخرى: إن القيم الأخلاقية عبارة عن مجموعة من الكمالات النفسية، إلا إنها كمالات علمية وليست نظرية، أي إنها كمالات ترتبط بعلاقة النفس بما دونها، أي ترتبط بالجسد والحياة الاجتماعية، خلافاً للكمالات

النظرية التي ترتبط بعلاقة النفس بخالقها ونظام العالم الكلي.

والذي يستفاد من كلمات أمثال ابن سينا وصدر المتألهين قريب من هذا المعنى.

وأما الفرضية الثانية فلا تقوم على أساس اختلاف الإنسان في المرتبة وإنما تقوم على أساس اختلاف دوافعه، بمعنى أن من الدوافع ما يخدم مصالح الفرد، ومنها ما يخدم مصالح الآخرين، وبعبارة أخرى: هناك في وجود الفرد شيء ليس له أدنى علاقة بمصالحه إطلاقاً، وإنما يتعلق بمصالح الآخرين فقط، وذلك من قبيل: ثدي الأم المملوء باللبن الذي يرفع حاجة الطفل ويخدم مصالحه دون أمه.

وأما الفرضية الثالثة فتوم على أساس اختلاف شخصية الإنسان أيضاً ولكن لا من ناحية كونها ترابية أو ملكوتية، بل من ناحية كونها فردية وطبيعة، وكونها شخصية اجتماعية وثقافية وإنسانية، فإن للإنسان مجموعة من النشاطات التي تفوق فرديته وشخصيته، وقد يتعرض إلى سلسلة من الواجبات والمحظورات التي لا تنسجم أحياناً مع مصالحه الفردية، فيحمل بين جوانحه الأنا الفردية والأنا الاجتماعية.

ونحن نرجع النظرية إلى من بين هذه النظريات الثلاث، والى هنا نكتفي بهذا المقدار مؤجلين بقية البحث إلى الأيام المقبلة، ولكن قد يقال في الختام، إن الكلام المتقدم قد يصلح بياناً لكلية الأحكام الأخلاقية وعموميتها، إلا انه لا يبين دوامها وإطلاقها.

وجوابه: أن بيان الدوام والإطلاق رهن بنوعية الإنسان، وما إذا أمكن خروج الإنسان من نوعيته، أو أن التغيرات لا تخرج الإنسان من

الناحية النوعية، وان الكمال الإنساني الحقيقي يكمن في مسار نوعيته، كما أن الناحية الاجتماعية تابعة لنوعية الإنسان أيضاً، بمعنى أن النوعية الاجتماعية تابعة للنوعية الفردية.

أسئلة الدرس الأول والثاني

ضع صح أو خطأ في ما يلي:

	صح	خطأ
1 - تقسم الحكمة إلى نظرية وعملية.		
2 - إن الحكمة النظرية عبارة عن العلم بأحوال الأشياء كما هي.		
3 - تتحدث الحكمة العملية عن الوجود.		
4 - تعتبر الألسيات من أقسام الحكمة النظرية.		
5 - لا تشمل الحكمة العملية إلا الإنسان.		
6 - تبحث الحكمة العملية في الأمور الكلية والفردية.		
7 - ليس للذهن إلا حكماً تصديقياً.		
8 - إن الحكمة بوجوب الفعل وعدم وجوبه موجود في جميع الأحكام الاختيارية.		
9 - إن أحكام مثل وجوب الصدق والإحسان هي أحكام بشرية إنسانية وعامة.		
10 - إن الكذب في ذاته شر.		
11 - إن كمال الفرد ليس له تأثير على كمال المجتمع.		
12 - كل أعمال الإنسان تنحصر في ما يوصله إلى أهدافه ومصالحه الفردية.		
13 - تكتسب الأعمال قداستها وقيمتها كونها عامة ومشتركة.		
14 - يعتبر المجتمع حقيقة واقعية وليس أمراً اعتبارياً.		
15 - إن وجدان الفرد في المجتمع يشكل جزءاً حقيقياً من وجدان المجتمع.		

16 - للإنسان حقيقة ترابية وحيوانية. ☐ ☐

17 - إن الكمال الإنسان الحقيقي يكمن في مسيرة نوعه. ☐ ☐

أجب على الأسئلة التالية :

1 - وضّح الفرق بين الحكمة والنظرية والحكمة العملية.

....

....

2 - ناقش كون الحكمة العملية عامة وكلية.

....

....

3 - تحدث عن العلاقة بين الفرد والمجتمع.

....

....

4 - ما هو الرابط بين مرتبة الإنسان الدنيا والعليا؟

....

....

الدرس 3

علم الأخلاق

تقدم في الدروس السابقة أن الحكمة العملية تتشعب إلى ثلاث شعب هي: الأخلاق، وتدبير المنزل، وسياسة المدن، إلا إننا سنقصر بحثنا على الأخلاق.

وقد دأبوا في تعريف علم الأخلاق على أن يقولوا: إنه: (علم يتكفل بيان كيفية الحياة أو كيف ينبغي أن تكون) أو: (علم يتكفل بيان الحياة الصالحة للإنسان وكيف ينبغي للإنسان أن يكون).

وهذا إنما يصح فيما إذا أخذ كمفهوم كلي ومطلق، بمعنى كيف ينبغي للإنسان أن يعيش بوصفه إنساناً، وما هي الحياة الصالحة التي تليق بإنسانية الإنسان؟

وأما بالنسبة للأمور الفردية وما يتخذه الإنسان لنفسه في أحواله الشخصية من قرارات لا يرتضيها لغيره، فلا تكون هذه التعارف صحيحة.

ومضافاً إلى ذلك فهناك مفهوم آخر في جعل الفعل أخلاقياً، وهو كيف نبغي للإنسان أن يعيش حتى تحضى أفعاله بقيمة وتكون ومقدسة ومتعالية؟ أي أن جعل الأعمال الاعتيادية ذات قيمة يعد من المفاهيم الأخلاقية.

ومن هنا فإن بعض المذاهب التي سنتعرض لها وان ادعت لنفسها

نظاماً أخلاقياً، إلا أنها في الحقيقة مفتقرة إلى النظام الأخلاقي: فإن هذه المذاهب وان تحدثت عما يجب أن تكون عليه الحياة، إلا أنه – كما تقدم أن ذكرنا – لا يمكن عد جميع الواجبات جزءاً من الحكمة العملية التي تشكل الأخلاق ركنها الأساسي، وفي الحقيقة أن ما يرتبط بالأخلاق ليس عبارة عن مجرد الكيفية التي يجب أن تكون عليها الحياة، وإنما المهم كيف يتعين علينا أن نعيش حتى تتسم حياتنا بالقداسة وتكون سامية ومتعالية.

وتوجد هنا ملاحظة أخرى ينبغي الالتفات إليها وهي: الأخلاق تعلمنا كيفية الحياة من جهتين: الأولى: ما يجب على الإنسان فعله، الثانية: كيف يجب على الإنسان أن يكون، والجهة الأولى ترتبط بأفعال الإنسان وأعماله التي تشمل أقواله أيضاً، والجهة الثانية ترتبط بخصاله وسجاياه، وقد افترض في هذا الكلام أن لكل إنسان ماهية وراء سلوكه وسجاياه وملكاته، وان الأخلاق لا علاقة لها بماهية الإنسان.

ولكن بناء على نظرية (أصالة الوجود) من جهة، وبناء على عدم تعين الشخصية الإنسانية للإنسان من جهة أخرى، وتأثير لسلوك في بناء نوعية السجايا، والأثر الذي تركته هذه السجايا على كيفية وجود الإنسان، لا تعد الأخلاق علماً يتكفل بيان كيفية الحياة فحسب، وإنما يتكفل ببيان الكيفية التي ينبغي للإنسان أن يكون عليها أيضاً.

معيار الصلاح وعدمه في الأخلاق

لا بد هنا من إيضاح شيء وهو: أن الحكمة النظرية – سواء أكانت

إلهية أم رياضية أم طبيعية - ليس فيها معيار ممدداً أو ميزان معين لكشف صحة النظريات أو بطلانها. فلو كان الاستدلال قياسياً كما هو الحال في استدلالات العلم الإلهي، لكانت معايير المنطق الصوري كافية بأن تكون صور القياس مطابقة للقواعد المنطقية، وان تكون مواد الاستدلال من البديهيات الأولية أو من المحسوسات أو المجربات، وإذا كان الاستدلال تجريبياً كان الاختبار العملي والعيني كافياً لكشف صحة النظرية أو بطلانها.

فما هو الكلام بشأن الحكمة العملية؟

قد يقال: أن مسائل الحكمة العملية لا يمكن إثباتها بأي واحدة من الطريقتين المتقدمتين، فلا يمكن إثباتها بالطرق القياسية، لأن مواد القياس ينبغي أن تكون من البديهيات الأولية أو المحسوسات أو الوجدانيات أو المجربات، والحال أن الحكمة العملية تتعلق بمفاهيم الحسن ولقبح اللذين ينتزعن من الأمور التي ينبغي فعلها والتي لا ينبغي فعلها تبعاً للحب والبغض، والحب والبغض ليسا من الأمور التي يتساوى فيها الناس، فالناس تبعاً لوضعهم الخاص ومصالحهم الشخصية تكون لهم أهداف ومطالب مختلفة، وكل فرد أو جماعة تحب شيئاً يختلف عن الجماعة الأخرى، وبذلك تكون الواجبات والمحظورات والأمور الحسنة والقبيحة من الأمور النسبية والذهنية، إذن فالمعاني الأخلاقية ليست من الأمور العينية التي يمكن إخضاعها للتجربة.

وقد وصل برتراند رسل في فلسفته التحليلية المنطقية إلى هذه النتيجة أيضاً، فقال في كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) ضمن شرحه

نظرية أفلاطون حول (العدالة) واعتراض ثراسيماخوس بان العدالة هي مصلحة الأقوى:

(إن هذه الرؤية تضمن المسألة الأساسية في الأخلاق والسياسة، وهل هناك معيار لتمييز الحسن من القبيح وراء ما يريده قائل هذه الكلمات؟ إذا لم يكن هناك مثل هذا المعيار فلا محيص عن المصير إلى أكثر النتائج التي توصل لها تراسيماخوس، ولكن كيف يمكن الوصول إلى هذا المعيار)(5).

وقال أيضاً، (يحظى الاختلاف بين أفلاطون وثراسيماخوس بأهمية كبيرة، فقد تصور أفلاطون أن بإمكانه إثبات صحة جمهوريته المطلوبة وقد يتصور الديموقراطي الذي يؤمن بعينة الأخلاق أن بإمكانه إثبات عدم صلاحية الجمهورية الأفلاطونية، إلا أن الذي يتفق مع ثراسيماخوس سيقول: ليس مدار الكلام حول الإثبات أو النفي، وإنما المدار حول الحب والبغض، فما دمت تحت تلك الرؤية كانت صحيحة عندك وإلا فهي باطلة، إذا كان الشيء محبوباً عند قوم ومبغوضاً عند آخرين فسوف لا يمكن الاحتكام إلى الدليل، وإنما يتم اللجوء إلى منطق القوة ظاهرة كانت أم مبطنة)(6).

وخلاصة كلام راسل هو أن مفهوم الحسن والقبح يوضح العلاقة القائمة بين المفكر والشيء الذي يبحث عنه، فإن كانت تلك العلاقة قائمة على أساس الحب كان ذلك الشيء حسناً، وان كانت قائمة على

٥ تاريخ الفلسفة الغربية، ج1، ص 242.

٦ المصدر السابق، ص 244.

البغض كان ذلك لشيء قبيحاً، وان كان لا يحبه ولا يبغضه فسوف لا يكون حسناً ولا قبيحاً.

وإذا انطبق معنى أو مفهوم على شيء مخصوص عند إضافته وارتباطه بشيء آخر، فسوف لا يكون ذلك المفهوم كلياً ومطلقاً.

وقد أجاب راسل بأننا لا بد أن نغير على جذور الحب، فلماذا يحب الإنسان شيئاً أو يبغضه؟ إن الإنسان إنما يحب شيئاً فيما ذا كان نافعاً ومفيداً له ولو من بعض الوجوه، وبعبارة أخرى: أن الطبيعة تسعى دوماً إلى كمالها، ولكي تحرك الإنسان وتحثه نحو الشيء طوع إرادته واختياره تزرع في نفسه محبة ذلك الشيء، كما زرعت مفهوم الحسن والقبح والوجوب وعدمه.

أن الطبيعة كما تسعى بالفرد نحو كماله وصلاحه، تسعى أيضاً نحو كمال النوع وصلاحه، وأساساً لا يمكن أحياناً فصل كمال النوع، ففي الأمور التي تحتوي على كمال النوع، ويكون كمال الفرد فيها مقروناً بكمال النوع تجد أن هناك نوعاً من المحبة التي يتساوى فيها جميع الأفراد، وتكون كلية ومطلقة، وتكون معياراً لتحديد الأمور الحسنة والقبيحة.

والعدالة وسائر القيم الأخلاقية من الأمور التي تسعى الطبيعة نحوها لضمان مصالح النوع وكماله، ولأجل أن يصل الناس إلى هذه القيم الأخلاقية بوحي من إرادتهم، تعمل الطبيعة على تحبيب هذه القيم إلى نفوسهم، وبذلك تتجلى الواجبات والمحظورات في النفس على شكل مجموعة من الأحكام الإنشائية.

وعليه لا ضرورة إلى البحث عن معيار كلي الأخلاق، وان تكون الأمور الحسنة والقبيحة من الأمور العينية كالبياض والسواد أو كون الشيء كروياً أو مكعباً.

وبذلك يكون راسل قد التفت إلى الأصل القائل: (أحب لنفسي كفرد يفكر في مصلحته المادية والجسدية) دون أن يلتفت إلى الأصل القائل: (أحب لنفسي كفرد يشعر بكرامته العالية وروحه السامية)، أو الأصل القائل: (أحب لنفسي كفرد يحب مصالح النوع الكلية).

وبعبارة أخرى: أن راسل التفت إلى حركة الطبيعة نحو المصالح المادية للفرد، ولم يلتفت إلى حركة الطبيعة نحو مصالح الفرد العلوية والروحية، والى حركة الطبيعة نحو المصالح النوعية.

وقد قال راسل في آخر كلامه: (إذا كان هناك معيار فلن يكون كلياً عينياً قطعاً)، وهو كلام صحيح طبعاً.

ثم أضاف قائلاً: (أن هذه من المسائل المعقدة ولا أدعي لنفسي القدرة على حلها)[7].

كما قال في الصفحة السابقة لكلامه هذا(وهذه إحدى المباحث الفلسفية التي لم يصدر بشأنها حكم قطعي حتى الآن)[8].

٧ تاريخ الفلسفة الغربية، ج1، ص 245.

٨ المصدر السابق، ص 244.

أسئلة الدرس الثالث

ضع صح أو خطأ في ما يلي:

	صح	خطأ
1 - إن سياسة المدن من ضمن فروع الحكمة العملية.		
2 - يتكفل علم الأخلاق ببيان الحياة الصالحة للإنسان.		
3 - تشكل الأخلاق الركن الأساسي من الحكمة العملية.		
4 - ينحصر هدف علم الأخلاق ببيان كيفية الحياة للإنسان.		
5 - تحتوي الحكمة العملية على ميزان دقيق لكشف صحة النظريات أو بطلانها.		
6 - تتعلق الحكمة العملية بمفاهيم الحسن والقبح.		
7 - إن الطبيعة تسعى بالفرد نحو كماله لكن لا ينطبق ذلك على النوع.		
8 - يؤمن راسل بعدم وجود معيار للأخلاق كلي وقطعي.		
9- إذا كان الاستدلال تجريبياً كان الاختبار العملي كافياً للحكم على صحة النظرية.		
10 - يتساوى الحب والبغض عند الناس.		

أجب على الأسئلة التالية:

1 - ما هو معيار الصلاح في الأخلاق؟

....

....

2 - اشرح كيف تعلمنا الأخلاق الحياة.

....

....

3 - اشرح رأي راسل حول العدالة.

....

....

الدرس 4

نظرية أفلاطون

والآن نتحدث عن النظريات المذكورة بشأن الأخلاق.

قلنا: أن الأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية تحاول الإجابة عن السؤال القائل: (ما هو الطريق الذي يؤدي بالإنسان إلى الفضيلة).

وقد أجاب الحكماء والفلاسفة عن هذا السؤال بأجوبة مختلفة، إلا أنها في الغالب غير متناقضة ولا متضادة برغم ما فيها من الاختلاف، بمعنى أن كل واحد من المذاهب اهتم بجانب مما يجب على الإنسان فعله، وسيتضح هذا بعد بيان النظريات المختلفة حول هذا الموضوع، وسنبدأ بحثنا بنظرية أفلاطون.

بيَّن أفلاطون نظريته بشأن الأخلاق في ضمن نظريته الاجتماعية، وبعبارة أخرى: أن أفلاطون تطرق إلى (الأخلاق) من خلال (سياسة المدن)، فقد بدأ بحثه بالعدالة الاجتماعية وختمه بالعدالة الأخلاقية والفردية.

وقد حصر أفلاطون الأشياء الجديرة بالاهتمام في هذا العالم بثلاثة أشياء هي: العدالة والجمال والحقيقة[9]، ثم ارجع هذه الثلاثة إلى حقيقة واحدة هي (الخير). فالفضيلة الوحيدة عند هي الخير.

ولتوضيح المطلب نقول: لقد عرف أفلاطون العدالة الاجتماعية

٩ ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ص 53.

بقوله: (أن العدالة هي أن يملك الشخص ويفعل ما هو ملكه)[10].

كما عرّف العدالة الفردية بقوله: (تنسيق وترتيب فعال، وعلم العناصر المنسجمة في الإنسان أن يكون كل عنصر في مكانه، وكل عنصر يؤدي دوره المرتب في السلوك)[11].

وبذلك يكون أفلاطون قد عرف العدالة سواء أكانت فردية أم اجتماعية بالتوازن والتناسب اللذين يعدان من أنواع الجمال، وبذلك ارجع العدالة إلى الجمال.

هذا وأن الجمال على نوعين: محسوس ومعقول، والمحسوس منه ما كان من قبيل جمال الزهرة أو الطاووس أو جمال يوسفؑ، وأما المعقول منها فهو ما يدرك بالعقل دون الحس، من قبيل جمال الصدق والأدب والتقوى والإيثار وتقديم العون للآخرين، وهو ما يعبر عنه بالإحسان أو الحسن العملي أو الخير الأخلاقي، وبذلك يتضح أن جمال العدالة من نوع الجمال المعقول وليس من نوع الجمال المحسوس وبذلك ترجع العدالة إلى (الخير) و(الإحسان).

ومن ناحية أخرى فان العدل هو القانون الأصيل في العالم فقد تدخلت العدالة في جميع أنحاء الوجود، فإن حامل شخص أن يخرج من مكانه الذي أعدته له طبيعته ومواهبه قد يجني بعض الفوائد والمنافع حيناً من القوت، ولكن الانتقام الإلهي يتبعه ويلاحقه، أن عصا الطبيعة المخيفة تعيد الآلة الموسيقية الجموحة إلى مكانها والى مقام نغمتها[12].

---

١٠ المصدر السابق.

١١ ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ص 54.

١٢ المصدر السابق.

وعليه فالحقيقة عبارة عن إدراك العدالة العالمية والأخلاقية ويرى أفلاطون أن الخير (وان لم يكن أخلاقيا) حقيقة عينية مستقلة عن أذهاننا، بمعنى إنها كالحقائق الرياضية والطبيعية لها وجود بقطع النظر عن أذهاننا، فإنها لا تحصل عن طريق ارتباط ذهننا بالواقع الخارجي حتى تكون أمراً نسبياً، وإنما هي مطلق ولها وجود في نفسها، هذا وان الخير الذي هو حقيقة مستقلة عن ذهننا ليس من الأمور البديهية، وإنما هو حقيقة نظرية، فلا بد لتحصيلها والتعرف عليها من الرجوع إلى العلوم المنطقية والفلسفية، وعليه فلا يعرف (الخير) سوى الفلاسفة.

وفي الخير تستوي جميع فئات الناس، فالخير يعم المرأة والرجل والكبير والصغير والعلم والجاهل والفرد والمجتمع، وبذلك تكون للأخلاق صيغة واحدة تنطبق على آحاد الناس.

وقد ذهب أفلاطون ومن قبله سقراط إلى أن العمل بمقتضى الخير يكفي فيه أن تعرفه، وذلك لانهما ذهبا إلى استحالة أن يعلم الإنسان فعل الخير ولا يقدم عليه، فالسبب في عدم فعل الخير هو الجهل، وعليه فلأجل القضاء على ساد الأخلاقي لا بد من مكافحة الجهل، ولهذا السبب ذهب سقراط إلى أن (الحكمة) أي كل فضيلة، بل تعد كل فضيلة نوعاً من الحكمة، فالشجاعة مثلاً عبارة عن معرفة ما يجب أن تخشاه وما ينبغي أن لا تخشاه، والعفة عبارة عن المقدار الذي يمكن للإنسان أن ينساق معه في شهواته النفسية، ومتى يتعين عليه كبتها والحد منها، والعدالة عبارة عن العلم بالأسس والضوابط التي لا بد

من مراعتها في التعامل مع الناس والارتباط بهم[13].

يرى أفلاطون أن الشخص إذا غدا فيلسوفاً فقد صار صالحاً على نحو قري وتلقائي، إذ من المستحيل أن يكون الشخص فيلسوفاً حقيقة ولا يكون متخلقاً بالأخلاق الفاضلة، لأن عدم الأخلاق نتيجة الجهل.

وقد تعرضت نظرية أفلاطون إلى إشكالات، منها:

1- لقد ذهب أفلاطون إلى أن الخير أمر واقعي مستقل عن الذهن مشبهاً إياه بالأمور الرياضية والطبيعية، أي كما أن للدائرة أو المثلث وجوداً مستقلاً عن أذهاننا فلا دور فيه للذهن سوى الكشف، فكذلك الخير فهو عبارة عن حقيقة موجودة بقطع النظر عن الذهن الذي لا يقوم إلا بدور الكاشف عن هذه الحقيقة.

وسبق أن ذكرنا أن هذه المسألة قابلة للنقاش، إذ يبدو من أفلاطون انه لا يفرق بين مسائل الحكمة النظرية والحكمة العلمية.

2- إن أفلاطون بسبب ذهابه إلى استقلال الخير الأخلاقي عن الذهن قد أنكر نسبية الأخلاق.

وهذه المسألة قابلة للنقاش أيضاً، وسنبحثها فيما بعد.

3- ذهب أفلاطون وأستاذه سقراط إلى كفاية العلم والحكمة للتحلي بالأخلاق، في حين أن هذه الأمور وحدها لا تكفي، وإنما لا بد من مواكبة التربية للتعليم في هذه المسيرة لإيجاد الملكات النفسية الموافقة لما يقتضيه العلم.

وهذا الإشكال هو الذي أورده أرسطو مخالفاً سقراط وأستاذه أفلاطون.

١٣ مسار الحكمة في أوروبا، ج1، سيرة سقراط.

أسئلة الدرس الرابع

ضع صح أو خطأ في ما يلي:

	صح	خطأ
1 - حصر أفلاطون الأشياء المهمة بالعدالة والجمال والحقيقة.		
2 - الخير هو الفضيلة الوحيدة.		
3 - يعتبر الخير عند أفلاطون أخلاقياً.		
4 - يعود الجمال عند أفلاطون إلى العدالة.		
5 - تعرف العدالة عند أفلاطون بالتوازن والتناسب.		
6 - إن جمال الصدق يعود إلى الجمال المحسوس.		
7 - يعود كل من الخير والإحسان إلى العدالة.		
8 - الحقيقة هي إدراك العدالة العالمية والأخلاقية.		
9 - يعتبر الخير من الأمور النظرية.		
10 - يرى أفلاطون أن السبب في عدم فعل الخير هو العلم به.		

أجب على الأسئلة التالية:

1 - أذكر أنواع الجمال عند أفلاطون وتحدث عنها.

....

....

2 - تحدث عن الخير عند أفلاطون.

....

....

3 - أعرض الإشكالات حول نظرية أفلاطون.

....

....

الدرس 5

نظرية أرسطو

وقد ذكر أرسطو نظرية السعاة في باب الأخلاق، فذهب إلى أن الإنسان لا يريد بلوغ الخير وإنما يريد بلوغ السعادة فقط، وعلى تعبير البعض[14] أن أرسطو يرى أن السعادة في الخير.

ونحن لم نعثر على تعريف لأرسطو للسعادة، إلا إننا نعلم أن السعادة عبارة عن الاستفادة القصوى من الملذات المتاحة والابتعاد ما أمكن عن الآلام والمنغصات، علماً إن اللذات والمنغصات لا تنحصر باللذات والآلام الجسدية فقط، فإن اللذات والآلام العقلية والروحية في قمة اللذات والمنغصات.

أن ما يتمناه الإنسان ويبحث عنه هو السعادة دون الخير والكمال ومن المستحيل للإنسان أن يتمنى الشقاء الذي هو ضد السعادة، واللذة شرط السعادة إلا إنها ليست عينها، وذلك لأن كثيراً من اللذات تتبعها آلام كثيرة أو تحول دون الوصول إلى لذات أكبر وأصفى وأنقى.

والآن علينا أن نرى ما هو الطريق الذي يؤدي بنا إلى السعادة؟

إن علم الأخلاق هو العلم بالطرق التي تؤدي إلى السعادة.

يرى أرسطو أن الفضائل ما هي إلا وسيلة تؤدي بنا إلى الهدف الذي ينشده الإنسان وهو السعادة، وذلك لان الهدف هو الشيء الذي نتمناه،

---

١٤ تاريخ الفلسفة الغربية، ج1، ص 344.

بينما الوسيلة هي ما نفكر فيه ونختاره، فالأعمال المتعلقة بالوسيلة لا بد من اختيارها، وبذلك تكون الفضائل من الأمور المتعلقة بالوسيلة[15].

ذهب أرسطو إلى أن الأخلاق، أو بالأحرى الطريق التي تؤدي إلى السعادة هي رعاية الاعتدال والحدود الوسطى، إذ قال: أن الفضيلة أو الأخلاق هي الحد الوسط بين الإفراط والتفريط، فهو يرى أن كل حالة روحية لها حد معين، وذلك الحد هو الفضيلة، وان تجاوزه أو القصور عنه رذيلة، فالشجاعة مثلاً المتعلقة بالقوة الغضبية التي يستهدف منها الدفاع عن النفس هي حد وسط بين - (الجبن) و(التهور)، وإن (العفة) المتعلقة بالقوة الشهوانية هي حد وسط بين (الشبق) و(الخمود)، وإن (الحكمة) المتعلقة بالقوة العاقلة هي حد وسط بين (المكر) و(الحماقة)، وكذلك (السخاء) حد وسط بين (البخل) و(التبذير)، و(التواضع) حد وسط بين (التكبر) و(الضعة)[16].

كما ذهب أرسطو - خلافاً لأفلاطون - إلى عدم كفاية العلم والمعرفة في الوصول إلى الفضيلة، بل مضافاً على ذلك لا بد من تربية النفس على الفضيلة، بان يوجد الإنسان في نفسه ملكة الفضيلة فعلى الإنسان أن يعوّد نفسه على الفضائل التي هي ليست سوى مراعاة الاعتدال والحدود الوسطى ولا يتأتى ذلك إلى من خلال تكرار العمل.

لا شك في أن نظرية أرسطو تحتوي على جزء من الحقيقة، ولكن ربما كان أهم إشكال يرد على هذه النظرية الأخلاقية أنها ترى أن وظيفة

١٥ تاريخ الفلسفة الغربية، ج1، ص 354.

١٦ لأجل تحديد مقدار الحد الوسط والإفراط والتفريط في الأخلاق راجع كتاب (جامع السعادات) للنراقي، والجزء الأول من الميزان.

علم الأخلاق هي تعيين أفضل الطرق (أي الحد الوسط) للوصول إلى العادة، أي أن أرسطو حدد الطريق ولم يعين الهدف، في حين انه أن من الممكن أن يقال: أن من وظائف المذهب الأخلاقي أن يحدد للإنسان هدفه أيضاً، فليس الإنسان في غنى عمن يرشده إلى الهدف.

هذا مضافاً إلى أن الأخلاق الارسطية حينما جعلت السعادة غاية قصوى للإنسان، وذهبت إلى هدايته إلى الطريق الذي يوصله إلى السعادة، فإنها في الحقيقة جردت الأخلاق من أهم عناصرها الأساسية المتمثلة في قداستها، فإن الأخلاق إنما تكتسب قداستها عن طريق نفي (الذات) والقضاء على (الأنا)، وبعبارة أخرى: قامت على نظرية انحصار الهدف في السعادة تدور على قطب الأنا.

كما أشكل على الأخلاق الارسطية بأشكال آخر[17]، قد ادعى عدم أمكان قياس جميع الأخلاق الفاضلة بمعيار (الحد الوسط) فإن (الصدق) مثلاً لا يمكن تصوره كحد وسط وله طرفان من الإفراط والتفريط، فإن الصدق حسن على جميع أحواله، وان ما يقابله من الكذب قبيح على جميع أحواله.

وقد ظهر بعد سقراط مضافاً إلى مذهب أفلاطون ومذهب أرسطو الفلسفيين بعض المذاهب الفلسفية الأخرى التي جاءت بنظريات حول المسائل لمنطقية والفلسفية والأخلاقية عرفت بأسمائها، وتلك المذاهب عبارة عن: الكلبيين والشكاكين والابيقوريين والرواقيين، وسنبدأ بنظرية الكلبيين الأخلاقية.

١٧ برترانْد راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج1، ص 343.

نظرية الكلبيين:

والكلبيون جماعة من الفلاسفة اشتقت اسمها من (الكلب) لمناسبة سنتعرض إليها عما قريب.

وعلى رأس الكلبيين رجل يدعى (ديوجينس)، وإليه يعود اشتهار هذه الجماعة بالدرجة الأولى، وقد حدث عن أستاذه (أنتيسثينيس) وهو تلميذ سقراط قائلاً: (لقد مكث حتى بعد وفاة سقراط في حياة مترفة بين تلاميذ سقراط، إلا أنه بعد أن تجاوز مرحلة الشباب رفض جميع أنواع الترف ولم يرتض سوى الصفاء والعيش البسيط، فانخرط في سلك العمال وارتدى ثيابهم، واخذ في إرشاد الناس البسطاء بلغة يفهمونها ولم يعر أي اهتمام للفلسفة الدقيقة والمعقدة وقال بالعودة إلى (الحياة الطبيعية) حتى أفرط في ذلك وعمد إلى نقد المجتمع ومؤسساته القائمة بما فيها الدولة والأسرة والذين نقداً هداماً وفضل أن يكون مجنوناً على أن يكون مترفاً)[18].

وقد رأى (ديوجينس) ضرورة الهروب من المدنية، وفي الحقيقة كان يريد أن يعيش كسائر الحيوانات حتى قيل عنه (إنه حاول العيش مثل الكلب)[19]، فكان أول من أطلق عليه مصطلح (الكلبي).

وقد قامت فلسفة الكلبيين على أساس الأذى النسبي الذي تلحقه الموجودات بالإنسان، فذهبت هذه الفلسفة إلى أن سعادة الإنسان تكمن في خلاصه وحريته واستغنائه عن متاع الدنيا، وقالت: إن ضبط النفس

١٨ المصدر السابق، ص 452.

١٩ المصدر السابق.

هو وحده السبيل إلى تحقق الفضيلة وذلك عن طريق التخلي عن الدنيا من الناحية العملية، ويمكن في الحقيقية تلخيص شعارهم هذا بقول ناصر خسرو: (إذا أردت الخلاف فتخلص من الدنيا).

أن المتقدمين من الكلبيين من قبيل (أنتيسثينيس) (ديوجينس) وان كانوا يؤكدون على البساطة في العيش والاستغناء عن الدنيا لم يتركوا للصلاح، إلا أن المتأخرين من الكلبيين تسامحوا في جميع الأشياء حتى قواعد الفضيلة فطبقوا مفهوم اللامبالاة على جميع الناس وأدخلوا جميع الأصول والعواطف في مفهوم الاستغناء والحرية، فأخذوا يقترضون من الناس أموالهم ولا يسددونها، كما أخذوا يسلقون الناس بألسنتهم، وبذلك اكتسب مصطلح الكلبي مفهوم والعدوان والوحشية.

لقد بدأ الكلبيون طريقتهم الأخلاقية وحكمتهم العلمية بالعيش البسيط الذي تحول بالتدرج إلى انعدام العواطف واللامبالاة وعدم مشاركة الآخرين في عواطفهم لينتهي بأعمالهم العدوانية تجاه الآخرين.

وبالإمكان العثور على عنصر صحيحة في جوهر الأخلاق الكلبية فيما يتعلق بضبط النفس، ولكن حينما وصلت بهم المرحلة إلى تفسير ضبط النفس بسحق العواطف والمشاعر الإنسانية الرقيقة والموافقة على الأعمال المنافية للعواطف والهروب من المجتمع ونبذ المدنية، فقد أخذت العناصر الفاسدة طريقها إلى هذا المذهب.

وعل كل حال إذا تغلغلت فلسفة مثل الفلسفة الكلبية في المجتمع فإنها ستترك لا محالة آثاراً مدمرة.

نظرية الشكاكين:

وزعيم هذا المذهب رجل يدعى (بيرهون) وقد خدم مدة من الزمن في جيش الإسكندر.

ولقد سلك مذهب الشك في الحكمة العملية، الطريق لذي سلكه في الحكمة النظرية، فكما ذهب إلى عدم إمكان إثبات أي أمر في الحكمة لا بواسطة الحس ولا بواسطة العقل، لإمكان خطئهما، فقد ذهب في الحكمة العملية أيضاً إلى عدم إمكان ترجيح عمل على عمل آخر، بواسطة العقل، فلا يمكن تصويب شيء أو تخطئته، فمثلاً لا يمكن ترجيح الصدق على الكذب أو الأمانة على الخيانة والعدل على الظلم بالدليل العقلي.

وقد أدت فلسفة الشك من الناحية العملية إلى الأنا وحب الذات، وهذا ما صرح به بعض الشكاكين، فقد قال واحد منهم يدعى (كارنياس): (حينما تغرق السفينة قد يعمد القوي إلى خلاص نفسه على حساب الضعيف، وإذا لم ينقذ نفسه في هذه الحالة فهو أحمق، ثم إنك ماذا تصنع إذا فقدت فرسك حين هروبك أمام جيش العدو الزاحف وأنت ترى واحداً من أفارد جيشك جريحاً على فرسه السالمة؟ إن كان لك عقل ومنطق سديد فأنزله من على فرسه واركبها أنت، ودع العدالة تقول ما تشاء)[20].

فكما ترى إذا كان المراد من الأخلاق: (كيفية العيش) فسيكون

٢٠ برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج2، ص 462.

لمذهب الشك نظرية مفادها: أن الحسن والقبح والمهم والتافه مفاهيم جوفاء أو في الأقل لا يمكن إثباتها، فلا بد من العيش بشكل يضمن للشخص مصالحه الخاصة.

وأما إذا كان المراد من الأخلاق: (كيف يمكن للإنسان أن يعيش حياة شريفة ومتسامية)، فسوف يفقد مذهب الشك نظريته الأخلاقية.

أسئلة الدرس الخامس

ضع صح أو خطأ في ما يلي:

	صح	خطأ
1 - يرى أرسطو أن السعادة في العدل.		
2 - إن السعادة عبارة عن الاستفادة القصوى من الملذات.		
3 - إن علم الأخلاق هو العلم بالطرق التي تؤدي إلى السعادة.		
4 - اللذة هي عين السعادة.		
5 - يتبع كثير من اللذات آلام كثيرة.		
6 - إن الفضيلة هي حد وسطي بين الإفراط والتفريط كما يرى أرسطو.		
7 - قال أنتيشينس بالعودة إلى الحياة الطبيعية.		
8 - يرى الكلبيين أن سعادة الإنسان تكمن في استغنائه عن متاع الدنيا.		
9 - يمكن حسب نظرية الشكاكين إثبات أي أمر في الحكمة.		
10 - تؤدي فلسفة الشك إلى حب الذات.		

أجب على الأسئلة التالية:

1 - اشرح نظرية أرسطو حول السعادة.

....

....

2 - تحدث عن نظرية الكلبيين حول الحياة.

....

3 - اشرح نظرية الشكاكين ومذهبهم في الحكمة العملية.

الدرس 6

نظرية الأبيقوريين

ولد (أبيقور) الفيلسوف اليوناني في أثينا سنة 342 ق.م، أي بعد ست سنوا من وفاة أفلاطون.

وقد سلك أبيقور منهج ذيموقريطس في الحكمة النظرية، فقال بالنظرية الذرية، وأما بالنسبة إلى الحكمة العلمية فقد جعل المتعة هي الخير الأسمى وجعلها مساوية للسعادة ودعى الجميع إلى تحصيل المتعة والتحرر من الألم، وقد رفض أبيقور جميع أنواع المتع التي تستتبع الآلام والهياج العاطفي، مؤكداً على أن هذه المتع لا تحصل من طريق الانغماس في الملذات الحسية وإنما بممارسة الفضيلة.

وعلى الرغم من ذلك فقد شاعت الأبيقورية بين الناس على إنها تعني الانغماس في المتع الحسية.

وقد قسم أبيقور المتع إلى المتحركة والساكنة أو الفعالة والمنفعلة، وأراد من المتع المتحركة أو الفعالة تلك المتع التي اكتسبها الإنسان تبعاً لانتماءاته أو ما يحصله، وهذا النوع من المتع ينشأ عادة من ألم ويكون بدوره مستتبعاً لألم آخر مثله أو في الأقل يستتبع تعباً نصباً، وذلك من قبيل متعة الأكل أو المتعة الجنسية أو طلب الجاه والمقام.

وأما المتع الساكنة فهي تلك المتع التي تعتري الإنسان نتيجة برئه من الألم من قبيل لذة لصحة والعافية.

والذي يدعو إليه أبيقور هي المتع الساكنة دون المتحركة كما يؤكد على الحياة البسيطة، ومن هذه الناحية كانت فلسفته قريبة من فلسفة الكلبيين فقد قال ابيقور: (إذا أمضى يومي بالماس والخبز فسيمتلئ جسدي نعيماً، وعندها سأبصق على المتع الدنيوية لا بوصها متعاً بل لما تستتبعه من الآلام والمنغصات)[21].

أن فلسفة أبيقور وان اشتهرت بطلب اللذة إلا إنها في الحقيقة تدعو إلى الخلاص من العذاب والألم، أي انه يرى الخير والفضيلة في الحد من الألم، وعليه فإننا نصح ما اشتهر عنه من (إنه يرى الفضيلة في الجد في طلب اللذة) بقولنا (إنه يرى الفضيلة في الحد من العذاب والمعانات).

قال أبيقور: (أكبر الفضائل الجد، فإنه أفضل حتى من الفلسفة نفسها).

لقد قصر ابيقور النظر في موضوع المتع أو بعبارة أصح: في موضوع نبذ الآلام، على المتع والآلام الجسدية، فلم يكن على علم بالمتع الروحية من قبيل المتع التي تحصل للإنسان بواسطة العلم والبحث أو الخير الأخلاقي أو العبادة العارفة، إذ قال: (إني إذا تركت المتع الذوقية، ولذة العشق، ولذة النظر جانباً، فسوف لا أستطيع تصور الخير، إن مصدر جميع الخيرات متعة البطن، بل لا بد من إرجاع الحكمة والثقافة إليها، فإن المتعة الروحية عبارة عن التفكير في المتع الجسدية والفارق الوحيد بينها وبين متعة الجسد يكمن في انه يمكننا بدلاً من التفكير في الألم أن

٢١ برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج1، ص 473.

نفكر في الخير والسعادة، ولذلك فإن سيطرتنا على المتع الروحية أكثر من سيطرتنا على المتع الجسدية)[22].

وهذه الفلسفة كالفلسفة الكلبية، فلسفة فردية تدعو إلى نبذ المجتمع والهروب منه، وترى أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكنها أن تخلصهم من بعض الآلام.

وعلى العموم فإن هذه الفلسفة ليس فيها أي قيمة معنوية أو إنسانية، وربما كانت الفلسفة الكلبية أفضل منها، لأنها في الأقل تستند على عنصر الحرية وعفة النفس، وان أدت بهم تعابيرهم إلى جد الإفراط في ذلك، إلا انك لا تجد أي عنصر من العناصر المتسامية في الفلسفة الأبيقورية، وبذلك صار المذهب الابيقوري مشابهاً لمذهب الشك في افتقاره إلى النظرية الأخلاقية.

ويمكن البحث في فلسفة المتعة من زاويتين: الأولى: الزاوية النفسية، والثانية: الزاوية الأخلاقية.

أما في الزاوية النفسية فنقول: هل المحرك الأساسي للإنسان وهدفه من جميع أفعاله ومساعيه هو الوصول إلى المتعة والهروب من الألم أو لا؟ وهذا بحث ممتع لا يسعنا الخوض فيه، إلا أن جوابنا المختصر هو: أن الأمر ليس كذلك.

وأما من الناحية الأخلاقية: فنقول هل الخير والحسن والفضيلة تساوي المتعة؟ أو بعبارة أخرى: هل الذي يحظى بقيمة ذاتية هي المتعة أو لا؟ وطبعاً الإجابة عن هذا السؤال ستكون بالنفي أيضاً.

---

٢٢ المصدر السابق، ص 375.

ومما يجدر ذكره أن مصطلح الأبيقورية قد شاع في عصرنا بمعناه المنحل الذي يدعو إلى الانغماس في الملذات والشهوات، وقد حاول بعض أن ينسب بعض كبار الفكر والفلسفة والعرفان إلى هذا المذهب بمعناه الشائع فنسبوا إلى ذلك أعلاماً كالخيام وحافظ ورموهم باللامبالاة والسعي وراء اللذة والطرب.

والمتسالم عليه هو أن الخيام الفيلسوف وعالم الرياضيات لم يكن كذلك فإنه وان كان يتراءى من أشعاره انه يذهب إلى هذا المسلك، إلا أن المحققين يشككون في أن يكون قائل هذه الأشعار هو الخيام الفيلسوف والعالم، وحتى لو فرضنا جدلاً إنها له ولكن لا يمكن تحديد مرادات الشاعر الفلسفية من خلال كلماته التي صبها في قالب الأبيات الشعرية، على الخصوص وقد طبعت في الآونة الأخيرة رسائل للخيام تذكر نفس المضامين الموجدة في الأشعار المنسوبة له إلا أنه ضمنها إجابات وحلولاً قائلاً: إنها حلول أستاذه أبي علي بن سينا.

وأما فيما يخص حافظاً فإن الأمر أكثر وضوحاً، فإن أدنى تدبر للغة حافظ وأقل مراجعة لديوانه الكامل، ومقارنة أشعاره ببعضها ومن خلال استنطاق بعضها ببعضها الآخر يتضح أن حافظاً الشيرازي لم يكن سوى فيلسوف وعارف رباني.

أسئلة الدرس السادس

ضع صح أو خطأ في ما يلي:

	صح	خطأ
1 - يقول أبيقور بالنظرية الذرية.		
2 - جعل أبيقور المتعة الخير الأسمى.		
3 - حسب أبيقور إن أفضل المتع هي ما يحصل عبر ممارسة الفضيلة.		
4 - المتع المتحركة هي ما يكتسبه الإنسان تبعاً لانتماءاته.		
5 - إن متع مثل الأكل أو طلب الجاه يستتبع تعباً.		
6 - المتع الساكنة هي التي تحصل للإنسان بعد شفائه من الألم.		
7 - إن المتعة الروحية عبارة عن التفكير في المتع الجسدية.		
8 - يسيطر الإنسان على المتع الروحية أكثر من سيطرته على المتع الجسدية.		
9 - يرى أبيقور أن متعة البطن هي مصدر جميع الخيرات.		
10 - ليس في الأبيقورية أي قيمة معنوية.		

أجب على الأسئلة التالية:

1 - اشرح نظرية أبيقور حول المتعة.

....

....

2 - ابحث فلسفة المتعة من الزاوية النفسية والأخلاقية.

....

....

3 – قال البعض أن الخيام وحافظ كانا يسعيان وراء اللذة. ناقش.

....

....

7

الدرس

نظرية الرواقيين

لقد اقترن ظهور الابيقورية بظهور مذهب آخر باسم (الرواقيين)، ومؤسس المذهب الرواقي شخص يدعى (زينون السيشومي) وهو غير (زينون الأليائي) الذي سبقه بقرنين، وقد كان السبب في تسمية الرواقيين أن زينون كان يجلس في رواق ويباشر تدريس أصحابه فيه.

ولم ينتم من اليونانيين إلى لمذهب الرواقي سوى نزر قليل منهم، فقد كن المتقدمون من الرواقيين من الشاميين، كما كان متأخ روهم من الروميين وقد كان زينون نفسه من أهالي (قبرص).

أن الرواقيين وان استقلوا في بناء نظريتهم في الحكمة النظرية، إلا أنهم تأثروا في بعض آرائهم بالكلبيين، كما أنهم نظروا إلى سقراط نظرة احترام وتقديس، فقد قال برتراند راسل:

(إن سلوكية سقراط أثناء محاكمته وامتناعه من الهروب وثباته في مواجهة الموت، وقوله: إن ضرر الظالم على نفسه أشد من ضرره على المظلوم، كان موافقاً لجميع التعاليم الرواقية، كما أن عدم تذمره من الحر والبرد وبساطة مأكله وملبسه، وورعه الكامل كان منسجماً مع التعاليم الرواقية[23].

وقد يشتبه الأمر على بعض فيصور أن الفلسفة الرواقية هي فلسفة

٢٣ برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج1، ص 492.

أفلاطون الأكاديمية نفسها، وان الرواقيين هم الاشراقيون إتباع فلسفة أفلاطون، فلا بد من تصحيح هذا الخلط.

أن الفلسفة الرواقية خلافاً للفلسفة الكلبية والأبيقورية تحظى بتاريخ اعرق وأطول، فقد ذكروا أن بداية الفلسفة الرواقية كانت بمنزلة الحافز الذي دفع المذهب الكلبي نحو الرقي والتقدم، كما اتخذت نهايتها صورة الإيديولوجية الافلاطونية، وقد حدثت أكثر التغيرات في الآراء فيما يخص ما بعد الطبيعة ومنطق الرواقيين، وأما الآراء الأخلاقية فقد حافظت على ثباتها النسبي)[24].

إن روح النظرية الأخلاقية لدى الرواقين مفادها أن الفضيلة عبارة عن إرادة الخير، وان الإرادة تنقسم إلى الخير والشر، وان الفضيلة والرذيلة موجودتان في الإرادة.

ذهب الرواقيون إلى أن إرادة الخير هي الإرادة التي تؤثر فيها الحوادث الخارجية، وقد ذهبوا في الحقيقة إلى أن إرادة الخير عبارة عن الإرادة القوية، ورأوا أن الإنسان إذا امتلك إرادة الخير وعزيمة قوية لا تؤثر بها الحوادث فسيمكنه أن يبقى حراً، وان يكون بمنزلة الصخرة الصماء الثابتة وسط الأمواج المتلاطمة في البحر الهدار، فقالوا: (إذا تمتع الإنسان بإرادة جيدة وأمكنه الثابت بوجه الحوادث الخارجية فسوف لا يمكن لتلك الحوادث أن تحطم شخصيته الذاتية)[25].

٢٤ الموسوعة الفلسفية لبابكين واسترول، فصل فلسفة الأخلاق.

٢٥ المصدر السابق.

وفي الحقيقة فقد ذهب الرواقيون إلى أن الصلاح يعود إلى شخصية الإنسان، وان شخصيته رهن بإرادته، ورأوا أن الإرادة الجيدة هي الإرادة القوية التي لا تتأثر بالحوادث والتي تتناغم مع الطبيعة.

يقول أبيكتيتوس وهو من الرواقيين البارزين: (لو تجرد كل واحد منا عن الأمور الخارجية فسيعود إلى إرادته، وسيدفعها إلى الأمام من خلال جهوده ورياضاته، وسيقوم على إصلاحها كي تتناغم مع الطبيعة وتتسامى حتى تصبح حرة ومختارة لا يعارضها شيء، وستكون مستقيمة وراسخة القدم، وان الذي يبتغي شيئاً أو يعض عنه وهو لا يتمكن منه فسوف لا يمكنه أن يتصرف بحرية وإنما عله أن يتغير تبعاً لتغيرها)[26].

وبذلك يرى الرواقيون أن التحرر يكمن في الإرادة الصالحة، وكما تقدم فإن الإرادة الصالحة تقوم على شرطين: الأول: عدم التأثر بالحوادث الخارجية، والثاني: التناغم مع الطبيعة.

وذهبوا إلى أن الخير والشر في الحوادث الطارئة على الإنسان ليس من الأمور المطلقة، فقالوا: (عن الذين يملكون زمام الأمور الخارجية التي تؤثر فيك قد يمكنهم أن يسجنوك أو يعذبوك أو يستعبدونك، إلا انك إذا تمتعت بإرادة قوية فسوف لا يتمكنون من السيطرة عليك)[27].

لا شك في أن الفلسفة الرواقية تحتوي على جزء من الحقيقة، فإن قوة الإرادة والتحرر والشخصية المعنوية جزء من الأخلاق، إلا

٢٦ المصدر السابق.

٢٧ الموسوعة الفلسفية لبابكين واسترول، فصل فلسفة الأخلاق.

أن هذه الفلسفة أمعنت في الانغماس في لذات، مما أدى بها إلى نوع من التساهل واللامبالاة، فلم تلتفت إلى مواجهة الحوادث والحث على تغييرها لصالح المقاصد والأهداف، فإن الإنسان لم يخلق في هذا العالم ليتخذ موقف الدفاع فقط وان يصون ذاته من الحوادث، كما انه لم يخلق ليكون حراً طليقاً وان لا يقع أسير الحوادث والوقائع، بل لا بد عليه مع ذلك أن يتخذ موقف الهجوم وان يعمل على تغيير الحوادث أحياناً، أي انه خلق حتى يغير نفسه ومجتمعه والعالم بأسره، وان يتجه به نحو الكمال، هذا أولاً.

وثانياً: لقد بالغت هذه الفلسفة في الاهتمام بالجانب الفردي فكرست كل اهتمامها بالفرد وأغفلت الجانب الاجتماعي، أي أن هذه الفلسفة سعت إلى إنقاذ الفرد فقط، ولذلك فإنك لا ترى في هذا النظام الأخلاقي أي بصيص للعواطف السامية.

وثالثاً: إن هذه الفلسفة أدعو إلى تنوع من المقاومة والرضا والتسليم ولإثبات (تجاه الذات والنفس) بوجه التأثيرات التي تخلفها الحادث (دون الحوادث نفسها) والاستسلام لما لا يمكن الخلاص منه من أحكام الطبيعة أو المشيئة الإلهية، فالإرادة الصالحة هي الإرادة المقاومة من جهة، وعدم مواجهة الحوادث القاهرة والجبرية مواجهة عابثة.

إلا أن هذا المقدار لا يكفي من الناحية الأخلاقية في إثبات حسن الإرادة، بل لا بد من العثور على مقصد حسن لم يكتسب حسنه من جهة الإرادة وإنما من جهة أخرى، وان يكون لك المقصد حسن لذاته لا إنه حسن لأنه يعود لصالح شخص معين، وبعبارة أخرى: أن يكون حسنه

مطلقاً لا نسبياً.

وإذا كانت الأخلاق طريقة في الحياة، يتعين على من يريد أن يعيش بشكلٍ أفضل وأحسن وأقوى وأكرم أن يتبعها، فبالإمكان عد طريقة الرواقيين من الطرق الأخلاقية. وأما إذا كان قلنا بان الأخلاق تعني السلوك الحسن والمتعالي والمقدس، فسوف لا يكفي ما ذكره الرواقيون، وذك لأن ما ذكروه هو الحسن النسبي أي الحسن لذلك الشخص الذي يتبع بتلك الطريقة، في حين أننا ذكرنا سابقً أن الخير والفضيلة إنما يكونان خيراً وفضيلة فيما إذا لم يختلفا باختلاف الأشخاص.

وتشترك الأخلاق الرواقية مع الأخلاق الكلبية في عدم المبالاة وعدم التأثر بالحوادث، وتختلف هاتان الفلسفتان عن بعضهما في أن الأخلاق الكلبية ترى الحسن في الاستغناء العملي وترك جميع الأشياء والانزواء عن كل شيء والعيش مثل الكلاب والبهائم، في حين أن الأخلاق الرواقية لا تدعو إلى الانزواء العلمي، وإنما تدعو إلى عدم المبالاة فيما يقبل أو يدبر من الأمور دون الفرار منها، وعليه فإن الرواقي لا يخالف التنعم بالحياة والاستفادة من الحضارة وإنما يخالف الوقوع في شباكها وحبالها.

فالكلبي يفر من المجتمع كما لو كان يخشى من الابتلاء بمرض بينما يسعى الرواقي إلى أن يكتسب مناعة ضد ذلك المرض، يشتركان في أنهما لا يدعوان إلى مكافحة ذلك المرض.

ذكرنا انه ظهر بعد سقراط مضافاً إلى مذهب أفلاطون وأرسطو أربعة مذاهب أخرى إلا أنها في الواقع ما هي إلا امتدادات لمذهب سقراط واستمرار لفرع من فروع فلسفته، وقد كانت تلك المذاهب

عبارة عن: الكلبيين والشكاكين والأبيقوريين والرواقيين، وكان ظهور هذه المذاهب عند أفول نجم اليونان حيث تلاشى نظام الدولة والمدن على يد الاسكندر المقدوني، وبعد موت الاسكندر ساد حياة الناس نوع من الاضطراب وعدم الاستقرار.

ويرى أكثر المحققين أن هذه المذاهب ليست سوى ردود عل مختلفة تاه بعض لمشاكل، صدع بها الفلاسفة وفقاً للقوانين الطبيعية، ففي الحقيقة لم تكن تلك الفلسفات سوى فلسفات مواساة وتسكين، فقد قيل: قد يواجه الناس المأساة بأشكال مختلفة فيستسلمون لها أو يواجهونها أو يذعنون لها، ولكل واحد من هذه المواقف نظرية أخلاقية تبرره.

فالمذهب الكلبي يدعو إلى الهروب من الحياة، والمذهب الرواقي يدعو إلى المقاومة الذاتية التي تقتصر على النفس، والمذهب الأبيقوري يدعو إلى الهروب من الآلام واللجوء إلى اللذات، وأما مذهب الشك فهو مذهب تزلزل الموازين التي تظهر عادة بعد الشدائد.

أسئلة الدرس السابع

ضع صح أو خطأ في ما يلي:

	صح	خطأ
1 - تأثر الرواقيين في بعض آرائهم بالكلبيين.		
2 - لم يحترم الرواقيين سقراط.		
3 - لم تنسجم أي من آراء سقراط أو سلوكه مع الرواقيين.		
4 - إن الرواقيين هم الإشراقيون أتباع فلسفة أفلاطون.		
5 - إن الفضيلة والرذيلة موجودتان في الإرادة.		
6 - تقوم الإرادة الصالحة على التأثر بالحوادث الخارجية.		
7 - ما ذكره الرواقيين هو الحسن النسبي.		
8 - تمارس الأخلاق الرواقية مبدأ اللامبالاة وعدم التأثر بالحوادث.		
9 - تدعو الرواقية إلى الانزواء عن كل شيء.		
10 - يدعو المذهب الرواقي إلى المقاومة الذاتية.		

أجب على الأسئلة التالية:

1 - تحدث عن النظرية الأخلاقية عند الرواقيين.

....

....

2 - تحدث عن إرادة الخير عند الرواقيين.

....

....

3 - ناقش الفلسفة الرواقية فيما خصّ إمعانها في الملذات.

....

....

الدرس 8

النظريات الجديدة

هناك في المرحلة القديمة - الأعم من المرحلة الإسلامية أو المسيحية أو الهندية أو الصينية أو غيرها - بعض النظريات الأخلاقية نترك ذكرها على أمل أن نفرد في المستقبل فصلاً مسهباً للحديث حول الأخلاق الإسلامية.

وبرغم قدم الأخلاق الإسلامية من الناحية التاريخية، ولكن بالنظر إلى ما يتمتع به الإسلام من النظام الأخلاقي المتكامل نرى من الضروري أن نوضع شطراً من النظريات الأخلاقية الجديدة لنخوض بعدها في بنيان النظام الأخلاقي في الإسلام، ولا يسعنا في هذا المقام أن نذكر جميع النظريات الجديدة في باب الأخلاق، ولو باختصار، ولذا سوف نختار بعضاً منها على غرار ما فعلناه بالنظريات القديمة في باب الأخلاق.

نظرية (كانت):

تعتبر نظرية (كانت من أشهر النظريات الحديثة في القرنين الأخيرين فقد رام (كانت) التمييز بين الفعل الأخلاقي وغيره فتصول إلى أن من الأفعال ما يصدر عن الإنسان اضطراراً ودون اختيار منه، فمثلاً أن الذي يقع تحت رحمة قاطع طريق عات يضطر إلى التخلي

عن نقوده، و إلا تعين عليه أن يتحمل النتائج الوخيمة، وهذا النوع من السلوك يتنافى مع حرية الإنسان.

وان الفعل الذي يصدر عن اختيار وحرية يكون على نوعين: فهو إما ناشئ عن ميل ورغبة، وإما ناشئ عن الشعور بالمسؤولية، فإن كان ناشئاً عن رغبة فلا يكون أخلاقياً، وان كان ناشئاً عن الشعور بالمسؤولية فهو أخلاقي.

وبذلك يكتسب الفعل الإنساني ماهيته الأخلاقية واو غيرها من الدوافع المحركة، فإن كانت الدوافع ناشئة من الشعور بالمسؤولية كانت للأفعال ماهية أخلاقية وإلا فلا، فإن الأفعال إنما تكن أخلاقية إذا لم تقترن بأي عنصر من عناصر الرغبة.

يقول (كانت): (لا يمكن تصور حسن شيء في الدنيا ولا خارجها مطلقاً وبلا قيد أو شرط، سوى ما كان من الإرادة الحسنة).

ومراد (كانت) من الإرادة الحسنة الإرادة الصادرة عن الشعور بالمسؤولية، ويمكن تلخص نظيرة (كانت) على النحو الآتي:

1- هناك فرق بين الأعمال فمنها ما هو أخلاقي، ومنها ما هو غير أخلاقي أو يتنافى مع الأخلاق، فالعمل الأخلاقي يحظى بقيمة ويستحق فاعله الثناء والاستحسان، بينما العمل المنافي للأخلاق عمل وضيع يستحق فاعله المؤاخذة والذم، أما العمل غير الأخلاقي فيتساوى فيه الطرفان فلا هو متصف بالرفعة ولا بالضعة، فلا يستحق فاعليه المدح ولا الذم، فالتاجر الذي يكدح من الصباح إلى المساء إذا باع شيئاً قيمته دينار فأعطاه المشتري عشرة دنانير سهواً،فإذا وضح البائع له حقيقة

الأمر وارجع له بقية النقود فسوف يحظى عمله هذا بقيمة أخلاقية، وأما ما سوى ذلك من أعماله اليومية الاعتيادية فلا هي ذات قيمة أخلاقية ولا هي منافية لأخلاق.

2- أن قيمة العمل لا تظهر إلا إذا صدر عن حرية واختيار، فإن صدر بالجبر والاضطرار فقد قيمته، فمثلاً لو دفع التاجر المذكور النقود خوفاً من القانون، لما كان لعمله هذا قيمة أخلاقية.

3- والعمل الصادر عن حرية واختيار إنما تكون له قيمة إذا كان صادراً عن إرادة حسنة، والإرادة الحسنة هي التي تنشأ عن دوافع حسنة، والدوافع الحسنة عبارة عن الشعور بالمسؤولية.

4- ما هو المراد من المسؤولية؟ المراد من المسؤولية مجموعة الأوامر التي يمليها على الإنسان ضميره، وهي على نوعين: فبعضها مطلق، والآخر مشروط، أما المشروط فهو الأمر الذي يمليه الضمير للوصول إلى الهدف، من قبيل الأمر بسلوك طريق معين للوصول إلى مدينة معينة، فالأمر المشروط إرشاد إلى مصلحة ما، كما هو الحال في اختيار أي وسيلة للوصول إلى هدف غاية مخصوصة، وأما الأمر المطلق فهو غير مشروط بأي شرط، فهو الأمر الذي يصدره الضمير لا بعنوان المصطلحة ولا لكونه وسيلة وطريقاً للوصول إلى الهدف، إنما هو مجرد تكليف ومسؤولية، إذن فالمراد من المسؤولية والتكليف هو أمر الضمير غير المشروط، وكل عمل أنجز من خلال الشعور بهذه المسؤولية فهو عمل أخلاقي.

أن لكلام (كانت) مرحلتين: الأولى ترتبط بعلم النفس بمعنى انه لا بد من الإذعان بان ضمير الإنسان يصدر أمرين: احدهما مطلق والآخر مشروط.

والأوامر المشروطة هي تلك التي أتت الإنسان نحو السعي لكسب المعاش، والأوامر المطلقة هي الأوامر الأخلاقية، وحينما يصدر الضمير الإنساني أوامره المطلقة يسمى بـ(الوجدان الأخلاقي).

وقد أعجب (كانت) كثيراً بالوجدان الأخلاقي من ضمير الإنسان، فقال: (شيئان يدهشان الإنسان بشدة، الأول: رؤيته للسماء المتلبدة بالنجوم، والثاني: وجدانه الكامن في ذاته). وقيل أيضاً: (أن هذه الكلمات مسطورة على شاهدة قبره).

والمرحلة الثانية ترتبط بسلوك الإنسان، فيمكن للإنسان أن يبلي أوامر ضميره المشروطة أو في الحقيقة ينساق وراء ميوله وغرائزه، ويمكنه أن يستجيب لضميره الأخلاقي الذي يفوق الميول والغرائز، وفي هذه الصورة سيكون سلوكه أخلاقياً.

5- كيف نعرف أن الأمر الذي صدع به ضميرنا مطلق وليس مشروطاً، وبعبارة أخرى ما هو المعيار الذي يميز لنا الأوامر المطلقة الصادرة بوحي من الوجدان الأخلاقي من الأوامر المشروطة الناشئة عن الرغبات والميول؟

ذكر (كانت) عدة معايير لذلك منها: بالنظر إلى أن العمل الأخلاقي، العمل الذي يهدف إلى بلوغ مصلحة هما شيئان، الأمر الأخلاقي مطلقاً وكلياً وعاماً، فإن (كانت) يرى أن أمر الوجدان عبارة عن: (اعمل وفقاً

للقاعدة التي ترغب في أن تكون قانوناً كلياً)[28].

إذن فكلما واجهت أمراً صادراً عن ضميرك بشأن شيء فتدبر فيه لترى ما إذا كنت ترغب في أن يكن ذلك الأمر قاعدة عامة وان لا ترى فرقاً بينك وبين غيرك في هذا الخصوص ففي هذه الحالة سيكون ذلك الأمر أخلاقياً، وأما إذا أردته لنفسك فقط ولم ترغب في أن يغدو قاعدة عامة، فسيتضح أن ذلك الأمر ناشئ عن الرغبات والميول الشخصية دون الشعور بالمسؤولية.

والمعيار الآخر عبارة عن القاعدة القائلة: (أسلك وكأنك ترى الإنسانية في كل الموارد غاية في شخصك أو في شخص آخر، وليست مجرد وسيلة)[29].

أن نظرية (كانت) وان كانت دقيقة إلى حد كبير، إلا إنها في الوقت نفسه لا تحتوي إلا على جزء من الحقيقة، فقد أصاب (كانت) فيما يرتبط بوجود مجموعة من الأوامر والواجبات غير المشروطة ومصادر إلهامها، ولكن تعتريها بعض النواقص، نشير إليها فيما يلي:

1- لقد حاول (كانت) أن يثبت أن السلوكيات الأخلاقية لا تنشأ من الرغبات والميول، وهذا خطأ، إذ سيرد هنا سؤال مفاده أن الذي يمتثل التكليف الأخلاقي هل يرغب في امتثاله أو لا؟ فإذا لم تكن له رغبة في الامتثال، فهل يخشى من عدم الامتثال أو لا؟ وهل يمكن لإنسان أن يذعن لأمر وهو لا يرغب في امتثاله ولا يخشى من مخالفته؟!.

---

٢٨ الموسوعة الفلسفية، تأليف بابكين واسترول، ترجمة الدكتور المجتبوي.

٢٩ الموسوعة الفلسفية، تأليف بابكين واسترول، ترجمة الدكتور المجتبوي.

2- لقد جرد (كانت) مفهوم (الحسن) و(الخير) من الأخلاق، فلم ير العمل الأخلاقي منبثقاً من حسنه الذاتي، وإنما حصر أداءه على الشعور بالمسؤولية، وبعبارة أخرى: أن رأس الحسن في الإرادة دون المراد، وربط حسن الإرادة بدوافعها، ورأى أنها إذا كانت ناشئة من الإحساس بالمسؤولية كانت حسنة و إلا فلا.

وبذلك تكون أوامر (كانت) الأخلاقية أوامر عمياء إلى درجة كبيرة، وان الوجدان الذي يعتقد به، آمر مستبد يصدر أوامره دون مقرر، ويحتم على الآخرين أن يذعنوا لأوامره دون اعتراض أو نقاش.

وعليه فإننا نميل إلى رأي الذين يذهبون إلى وجود نوع من الحسن وراءك أمر، ونرجعه على رأي (كانت)، سوى أن الحسن تارة يكون نسبياً وأخرى مطلقاً كما تقدم أن ذكرنا في الدرسين الأول والثاني.

3- طبقاً لنظرية (كانت) إذا كان في العمل خير عام وامتثاله الإنسان بدافع من عواطفه الإنسانية ورغبته في تقديم العون للآخرين ودون تدخل الشعور بالمسؤولية لا يكون فعله هذا أخلاقياً، فإن الوجدان الأخلاقي الذي يثني عليه (كانت) يأبى قبول هذا المطلب.

4- وبشك م أن كل عمل يأتي به الإنسان بحكم التكليف والإلزام وان كان هذا الإلزام نابعاً من ذات الإنسان فإنه سيحد من حريته تجاه ذلك الفعل، ويقلل من جنبته الأخلاقية، وأما إذا جاء الإنسان بفعل بمحض اختياره ودون تدخل الشعور بالمسؤولية وإنما لمجرد حسنه الذاتي فسوف يحضى بأهمية أخلاقية أكبر[30].

٣٠ وبذلك يتضح أن للبحث صلة إلا أن الفرصة لم تسمح للشهيد المطهري بإكماله وإتمامه.

أسئلة الدرس الثامن

ضع صح أو خطأ في ما يلي:

	صح	خطأ
1 - يرى كانتّ أن بعض أفعال الإنسان تصدر عنه دون اختيار منه.		
2 - إن الفعل الذي يصدر عن رغبة وميل من الإنسان هو أخلاقي.		
3 - الإرادة الحسنة هي الإرادة الصادرة عن الشعور بالمسؤولية.		
4 - إن العمل الغير أخلاقي لا يتّصف لا بالذم ولا بالمدح.		
5 - المراد من المسؤولية مجموعة الأوامر التي يمليها ضميره.		
6 - كل عمل يصدر من خلال الشعور بالمسؤولية هو عمل أخلاقي.		
7 - الإنسان الذي لا يرغب في أن يكون أمراً ما عاماً بين الإنسان يكون عمله أخلاقياً.		
8 - يرى كانتّ أن السلوك الأخلاقي لا ينشأ من الميول.		
9 - جرّد كانتّ مفهوم الحسن من الأخلاق.		
10 - كل فعل يصدر من الإنسان بسبب التصوّر بالمسؤولية يجعله حراً.		

أجب على الأسئلة التالية:

1 - ما هي النواقص التي تعتري نظرية كانتّ؟

....

....

2 - تحدث عن المسؤولية عند كانتّ.

....

....

3 – ما هو المعيار الذي يميز الأوامر الصادرة من الوجدان الأخلاقي من الأوامر الناشئة عن الرغبات والميول؟

....

....



الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم